

ه - بديع الزمان الهمداني

للدكتور عبد الوهاب عزام

عقبته

وكان سني الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم (١) قال في الديوان متغزلاً :

ذات جفون ضعفت كذهب المستزلة

وله قصيدة يرد فيها على الخوارزمي قوله في الصحابة . ومن أجل ذلك اتهم في نيسابور بميله عن العلويين ، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره في رثاء الحسين ، فهو على حجة آل البيت لا ينهب مذهب الشيعة في الخلافة وما يتصل بها . يقول في الديوان :

يقولون لي لأتعب الوصي قتلته الثرى بقم الكاذب

أحب النبي وأهل النبي وأختص آل أبي طالب

وأعطى الصحابة حق الولاء وأجرى على السنن الواجب

فإن كان نصبا ولأهـ الجميع فاني كما زعموا ناصي

وإن كان رفضاً ولأهـ الوصي فلا يبرح الرفض من جانبي . الخ

وفي رسائله واحدة كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور

التشيع في هراة ويحذر أن يسيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة : (٢)

« ورجع صاحبي آخفاً من هراة فذكر أنه سمع في السوق صيا

ينشد أن محمداً وعلياً ، لعناتهما وعديا . قلت أن العامة لوعلت معنى

تيم وعدى ، لكفتي شغل الشكاية ، وولى التعمت شغل الكفاية ، ويل

أم هراة ، أنصب الشيطان بها هذه الحباله ، وصرنا نشكر هذه الحالة .

واقه ما دخلت هذه الكلمة بلدة الاصب عليها الذلة ، ونسخت عنها

الملة ، ولا رضى بها أهل بلدة الا يجعل الله الذل لباسهم ، وألقى بينهم

باسمهم . هذه نيسابور منذ فشت فيها هذه المقلدة في خراب

واضطراب الخ ،

أدبه

قدمت في المقالات الماضية طرفاً من شجرة الهمداني وأخبار

(١) الرسائل ص ١٦٦ (٢) - ص ١٨٢

أُسرت وأحوال عصره ، وأبين الآن عن أدبه : نثره وشعره

كان أحمد بن الحسين الهمداني أعجوبة في ذكائه وحفظه ، فبسر

له علم واسع باللغة والأدب . وهو يقول في حديثه عما شجر بينه وبين

أبي بكر الخوارزمي : « قتل يا أبا بكر هذه اللغة التي هدتنا بها

وحدثنا عنها ، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها ، فخذ غريب المصنف

إن شئت ، واصلاح المنطق إن أردت ، والفاظ ابن السكيت إن

نشطت ، وبجمل اللغة إن اخترت ، فهو الف ورقة ، وأدب الكاتب

إن أردت ، واقترح على أي باب شئت من هذه الكتب حتى اجعله

لك نقداً ، واسرده عليك سرداً ، فقال اقرأ من غريب المصنف

رجل ماس خفيف على مثال مال وما أساءه فاندفعت في الباب

حتى قرأته فلم اتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ، ثم قلت

اقترح غيره ، فقالوا كفى ذلك ، قتلته اقرأ الآن باب المصادر من

أخبار فصبح الكلام ولا اطالبك بسواه ، ولا أسألك عما عداه ،

فوقف حارداً ، وخذت ناره ، وقال الناس اللغة مسلبة لك أيضاً

فهااتوا غيره ، قتلته يا أبا بكر هات العروض ، فهو أحد أبواب الادب

وسردت منه خمسة أبحر بالقابها وأياتها ، وعلها وزحافها ، قتلته

هات الآن فاسرده كما سردته»

وقد أعجب الناس بذكائه وبديته ، وتحدى هو الناس بهما فجاه

كثير من منشأته عضو البديهة ، ولو روى فيه لجاء خيراً من ذلك .

قال النعالي في البتمة : « ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه

من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب

عجائب ، وبديائع وغرائب ، فمنها أنه كان يشق القصيدة التي لم

يسمعا قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها

من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ولا يخل معنى ، وينظر في

الاربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة

خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هدأً ، ويسردها سرداً . وهذه حالة في

الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو

انشاء رسالة ن معنى بديع ، وباب غريب ، فيفرغ منها في الوقت

والساعة والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح

عليه فيتدىء بأخر سطر منه ثم يجرى إلى الأول ، ويخرجه كأحسن

شئ وأملحه ، ويوشع القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة

من انشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم ،

ويطلى القوافي الكثيرة فيصل بها الأيات الرشقة . ويقترح عليه

مرات إحداها في واقعة كربلاء ، وله اثنتان وعشرون قطعة صغيرة في المواعظ تنهى بما في نفسه من الانقباض والحزن والتشاؤم كما قدمت في الكلام عن أخلاقه . ومن مرثية الحسين بن علي :

يألمه ضرب الزمان م على ممرسها خيامه
لله درك من خرامى م روضة صارت ثغامه
فوديه قامت به للدين أشرط القيامة
لمضرج بدم النبوة م ضارب بيد الامامة
متقسم بظأ السيوف م مجرعا منها حمامه
منع الورود وماؤه منه على طرف الثمامه الخ
وقد قدمت آنفا مرثية الخوازمي التي أولها :

خانيك من نفس خافت وليك من كد ثابت (١)
ويقول في المواعظ ، وهو في هذا يشبه أبا العتاهية :
يا حريصا على الغنى قاعدا بالمراسد
ليست في سعيك الذي خضت فيه بقاصد
ان دنياك هذه ليست فيها بخالد
بعض هذا فانما أنت ساع لقاعد
ويقول :

يا قاب ما أغفلك عن حركات الفلك
ويحك هذا الردى اليك يعى ولك
انت على سفرة يشيب منها الحلك
من انتجى نهجه بغير زاد هلك
ويقول :

أجسدك ماتنه للدنيا كأنك واجد عنها ملاذا
لذلك على الغنى تزداد حرصا وفي حبلات سكرتها نقادا
هب الدنيا تحقق ما ترجى من الآمال ويحك ثم ماذا ؟
وزراء يتكلم بلسان الصوفية في القطعة التي أولها :

ان الله عييدا فزوايا الأرض غربا الخ (٢)
ويقول في صديق له حبس :

مالى أرى الحر ذاهبا دمه ولا أرى النذل ذاهبا ذهبه
أفلح من لومه وسيلته وليس ينجو من جرمة حسبه
من شاء ألا يناله زمن فليكن العرض جل ما يهبه
أراحنا الله منك يا زمنا أرعن بصطاد صقره غربه

كل عويص وعسير من النظم والثر فيرتجله في أسرع من الطرف
على ريق لا يلبسه ، ونفس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة . . .
وكان يترجم ما يقترح عليه من الآيات الفارسية المشتعلة على المعاني
الفنية بالآيات العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع ، الى
عجائب لا تحصى ، ولطائف تطول أن تستقصى .

لدينا من آثار الهمذاني ديوانه ورسائله ومقاماته . فأما الديوان
فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت ، منها ست وثلاثون قصيدة
وقطعة في المدح مدح بامن الملوك والامراء : شمس الممالى
قابوس بن أحمد ، وشمكير ، والسلطان محمود الغزنوى ، وبنى فريغون
وخلف بن أحمد ، وبنى بكال . ومن الوزراء : صاحب بن عباد ، وأبا
نصر بن زيد . ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا
وهراة . وهو يجرى في المدح على السنن المعروف ، ولكنه لا يلتزم
الغزل في أول المدايح ، ولا يظيل في معظمها .

ومن جيد شعره في المدح القصيدة التي أولها :
على ألا أرح العيس والتبنا وألبس اليد والظلم واليلا الخ (١)
وقوله في بنى فريغون :

ألم تر أنى في نهضتى لقيت الغنى والمنى والاميرا
وثما التقينا شملت التراب وكنت امرا لا أشم العيرا
لقيت امرا ملء عين الزمان يعلو سجايا ويرسو ثيرا
لآل فريغون في المكرمات يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حلتك بمغنام رأيت نعيما وملكا كبيرا
وأما الغزل فله فيه غير ما في قصائد المدح ست قطع تحوى
واحدا وعشرين بيتا . والديع ليس غزلا ، ولكنه حاكى الشعراء
في ضرب ألفوه وانتوا فيه وعدوه من فروض الشعر .

وله قطع في وصف الأسد ، والليل ، والمجمر . . وقطعته في
وصف الليل نموذج من شعره المرتجل . ارتجلها حين اقترح عليه
الموضوع والقافية :

أنت ليل إذا سواد كالسج مخدر الصبح خدارى الدجج
أدرج العالم فيه لاندراج أو نسج الحرمان منه لانتسج
ليلا تحرون النجم قارى النهج البعر فيه نقطة لو انفرج
والدمر من أجزائه ولا حرج أيسر ما فيه الشهور والحجج الخ
ويجود شعر الهمذاني في الرثاء والمواعظ . في ديوانه ست

جواناش بسختی همی کشیدم جون مورکه کتم کشد نجانه
باموی بخانه شدم بدرکفت : منصور کدامست آوین دوکانه
والترجمة :

سرت مرطه شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلخت بها مثقلا تدلخ النمل بحب الحنات
قال أنى من ولدى منكما كلا كما يدخل سم الغياط
ويرى أنه تصرف في ترجمة البيت الثالث . وأصله : ذهبت
الى الدار بالشعرة . فقال ابى : منصور أى الاثنين ؟ وفى الديوان
يبتان قبل هذه الثلاثة . (١)

ومن الترجمة التى يتجلى فيها اسلوب الفارسية هذان اليتان
فؤادك أين ؟ سباه . بماذا يملته . من ؟ غزال ريب
سلابا . نعم . أين ؟ وسط الطريق متى ؟ اليوم . هذا سلاب غرب
وهى تذكر دارس الادب الفارسي بمطلع قصيدة عتشم من شعراء
الدولة الصفوية فى رثاء آل البيت

وفى الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية ، والشعر المنظوم بلقتين
أولاً كثر يسمى الملعع فى عرف أدباء الفرس والترك وهو كثير عندهم (٢)
ويكثر فى شعره المجزوء ، ولا سيما المخرج والكامل . وسأعود الى
هذا حين الكلام فى سجعته .

وأحسب بديع الزمان نظم معظم شعره فى أوائل حياته . ففى
الديوان أبيات نظمها وهو فى الثانية عشرة ، وهو يذكر سن العشرين
فى بعض شعره :

إني بعشرين للهـ ريفـ ما بعد الثمانين تعرقها

ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن احمد :

ألم بك فى خمس وعشرين حجة تسمنها هاد لملى الطرائق

ثم هو يلحن النظم فى كلامه عن الخوارزمى فى بعض رسائله
وذلك دليل على أنه مال عن الشعر : « هو خوارزمى ، ولست من
خوارزم ، وهو شاعر ولعن الله النظم » وأوضح من هذا قوله فى
رسالته الى ابن ظهير رئيس بلخ

« كنت نويت ألا أقول الشعر فأبى الله إلا الديب .
وأجذنى قد اكتهلت والكهل قبيح به الجهل . » (٣)

يتبع عبد الوهاب عزام

(١) لباب الالباب ص ١٦ والديوان ص ٤٨ (٢) الديوان ص ٦٤

(٣) ١٤٤ من الرسائل — ط الجواب

يا ساغبا جائف الجوارح لا يسكن الا بفاضل سغبه
ياضرمنا فى الأناام متقددا والجود والمجد والندى حطبه
يا صائدا والعللى فريسته وناها والجمال منتبه
يا سادق لا تلن عظامكم لئلا الدهر ان يهيج كلبه
بل هو حين يحض على التمتع بالدنيا ، واهتبال فرص العيش
ينم عن حزن وتشاؤم يذكرنا بعمر الحيام فاما يلمولينسى بتاريخ الحياة
انما الدهر الذى يصعد دقنى حر المصاع
كالننى مدا وأجزى من الحلم بصاع
فاغم الايام ما ألفتها خضر المراعى
انما نحن من الدهر ربواد ذى سباع
لا تدع من لذة العيش عيانا لسماع (١)
ويقول فى قصيدة يمدح فيها ابا جعفر الميكالى :

نستيج الدهر والايم منا تستيج

ضاع مانحميه من انا فمننا وهو يبيح

نحن لاهون وآجال المسمى لا تستريح

يا غلام الكاس قاليا س من الناس مريح

أنا يادهر بأنا فك شق وسطيح الخ (٢)

وللهذانى قطع كثيرة فى الالغاز والمميات ، وكان الرجل نادرة فى
الذكاو البديهة فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب . وفى الديوان
منه اثنان وعشرون ، ويكثر فى شعره الترجمة عن الفارسية . وفى الديوان
ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة . وكانت الترجمة بين العربية
والفارسية سنة ثمانية بين متأدبى المسلمين فى ايران وما يجاورها ، اذ كان
الشعر الفارسي قد بلغ أشده ، وكانت العربية لا تزال لغة العلم
والادب . وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين ،
ولقب لذلك بذى اللسانين ، وفى يتيمة الثعالبى أمثلة من هذا . وهذه
الترجمة تهم دارس الأدبين العربى والفارسى . ولكن يقلل خطرهما
أنا نجد الترجمة ولا نجد أصليا ، ولم أعرف من الشعر الفارسي الذى
ترجمه البديع الا قطعة أثبتها محمد عوفى فى كتاب لباب الالباب فى
ترجمة المسطق الشاعر الفارسي ، ويقول عوفى ان صاحب بن عباد
أمر البديع بترجمتها ، فقال على أية قافية ؟ فقال الطاء . قال ومن أى
بحر ؟ قال أسرع يابديع ، فى البحر السريع ، فترجمها ارجع لالاولايات :
بك بوى بد زويدم آردوزلفت جون زلف زرى اى صنم بشانه

(١) الديوان ص ٥٢ (٢) ص ٢٠